## الكتاب السابع

# ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟

**المؤلف : أبو الحسن الندوي**

**تحليل وعرض أ.د. سليمان الخطيب**

**الندوي ونبذة عن حياته:**

بدأ السيد أبو الحسن الندوي، تعلّمه القرآن الكريم في البيت تعاونه أمّه، ثمّ تعلّم اللغتين الأوردية والفارسيّة، ثمّ بدأ وهو في الثانية عشرة من عمره بتعلّم الإنجليزية والعربية معًا، وبدأ تعلّم العربية على الشيخ خليل محمد اليماني، وتوفر سنتين كاملتين على دراسة الأدب العربي، وقرأ كثيرًا من كتب الأدب وشغف بها على خلاف العادة في الهند، لأنّهم يزهدون في الأدب العربي، وقرأ كثيرًا لأصحاب الأساليب ونوابغ المنشئين في القديم والحديث واطّلع على مصادر الأدب العربي القديمة.

ثمّ التحق بجامعة لكهنئو، وهي جامعة تدرس العلوم المدنية باللغة الإنجليزية، وفيها قسم لآداب اللغة العربية، التحق به السيد أبو الحسن وكان يومئذ أصغر، طلاب الجامعة سنًا، وضاق بدروس القواعد أوّلًا، فأضرّه ذلك قليلًا، ثمّ سار في تعلمّه ممتازًا فائقًا سابقًا، ثمَّ أتمَّ دراسته الأدبيّة، ثمَّ درس علوم الحديث، ومكث في دار العلوم مدّة شهور، وحضر دروس العالم الكبير المجاهد، الشيخ حسين أحمد المدني في الحديث.

وسافر إلى لاهور، وقرأ التفسير على المصلح الكبير، والداعية العظيم الشيخ أحمد علي المفسّر المشهور (ولاهور مدينة العلم والثقافة، ومركز النشر والصحافة في الهند غير المُنقسمة يومئذ)، وانتهز أبو الحسن هذه الفرصة الثمينة، فقابل كبار المعلّمين والأساتذة، ومشاهير الأدباء والشعراء وقادة الفكر، أجدرهم بالذكر

شاعر الإسلام، الدكتور محمد إقبال فحضر بعض مجالسه، وأنس به الشاعر العظيم، رغم حداثة سنّه وعدم شهرته.

ثمَّ عُيِّنَ مُدرّسًا في دار العلوم لندوة العلماء هناك ومكث فيها عشر سنوات، يدرس علومًا مُختلفة، واشتغل بجوار ذلك بالكتابة في مجلّة «الضياء» العربيّة، التي تصدرها ندوة العلماء، ورئيس تحريرها الأستاذ مسعود الندوي.

وتلقّى التربية الروحيّة من العارف الجليل، المربّي الكبير عبد القادر الراي بوري، واستفاد من صحبته ومجالسته.

ورأس أبو الحسن تحرير مجلّة الندوة العلميّة التي كانت تصدرها بالأورديّة وكانت لسان حال الندوة، وكلّفته الجامعة الإسلاميّة في «عليكرة» بوضع منهاج لطلبة (الليسانس) في التعليم الديني، فألّف في ذلك كتابًا سمّاه «إسلاميّات»، وقبلت الجامعة هذا الكتاب وكافأت صاحبه عليه، ودُعي لإلقاء محاضرات في الجامعة الإسلاميّة بدلهي في سنة ١٣٦١هـ - ١٩٤٢م، فألقى محاضرة في موضوع الدين والمدنيّة، كانت موضع الاستحسان، ونُشرت فكان لها تأثير واسع النطاق.

وألّف في هذه الفترة كتبًا لطلبة المدارس العربيّة في الهند، وقد قررت دار العلوم في الهند، وبعض الجامعات تدريسه، ومنها كتاب «قصص النبيين» للأطفال في ثلاثة أجزاء، وغير ذلك من الكتب، وأصدر مجلّة «التعمير» ، وأسس جمعيّة التبشير بالإسلام بين الهندوس، وأصدرت هذه الجمعيّة عدّة رسائل وبحوث عن الملّة الغرّاء بالإنجليزيّة، وأسس «المجتمع العلمي في لكهنئو في آخر ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م» وله نشاط وإنتاج في اللغة الإنجليزيّة والهنديّة والأورديّة والعربيّة ومطبوعات قيّمة.

وألّف كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين سنة ١٣٦٤هـ (١٩٤٥م) وهو في الثانية والثلاثين من عمره، وقد تأخّر طبعه وظهوره، وهو يزيد مواده،

ويتناوله بالتنقيح والتهذيب، إلى أن صدرت له الطبعة الأولى في مصر عام ١٣٦٩هـ (١٩٥٠م).

وقد انتُخِب أمينًا عامًا لندوة العلماء على إثر وفاة أخيه الأكبر الدكتور السيد عبد العلي الحسني سنة ١٣٨٠هـ (١٩٦٢م)، واختير عضوًا مُراسلًا في المجمع العملي العربي بدمشق سنة (١٩٥٧م)، ودُعي لإلقاء محاضرات كأستاذ زائر في جامعة دمشق سنة ١٣٧٥هـ (١٩٥٦م)، واختير عضوًا لرابطة العالم الإسلاميّ في مكّة المُكرّمة سنة ١٣٨٠هـ (١٩٦١م)، وعضوًا في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلاميّة في المدينة المنوّرة، وانتخب رئيسًا لهيئة التعليم الديني في الولاية الشماليّة في الهند سنة ١٩٥٩م.

السؤال الذي يفرض نفسه حين طرح موضوع هذا الكتاب، هو مدى حقيقة وواقعيّة هذا الطرح..

ما شأن العالم الإنسانيّ وخاصّة الغربي، بتخلّف المسلمين أو انحطاطهم كما يرى المؤلّف.

بصيغة أخرى.. هل للإسلام هذا الثقل العالمي والتأثير الحضاري الذي يجعل من دوريّة الحضارة الإسلاميّة في ذلك الإشعاع العالمي الذي شغل حيّزًا كبيرًا في شهادة المصادر العلميّة وكتابات وجهود العقل الغربي والعالمي.

كذلك التأثير الفعّال الذي أحدثه العقل المسلم على مسيرة الحضارة الغربيّة، وخاصّة في الإطار العلمي والثقافي وذلك باعتراف أساطين الفكر الغربي الذين اعترفوا بفضل المسلمين وقدّموه لعصر الإحياء في الغرب من خلال الحواضر الإسلاميّة المُختلفة، بعد ألف عامٍ أو يزيد من سيطرة رجال الدين على مرحلة العصور الوسطى في الغرب، أورثت الغرب حقبة من التخلّف والتردي الحضاري، حيث نشأ الصراع بين العلم والدين في الغرب، بسبب مصادرة السلطة الدينيّة

للعقل وحربها للعلم والعلماء، حيث أدّى ذلك إلى طرح العلمانيّة كبديل لعقل متأزّم ولتجربة حضاريّة لم يستطع الغرب أن يتقدّم من خلالها، إلاّ بفضل إسهامات الحضارة الإسلاميّة والعقل المسلم، وخاصّة في ميدان العلوم الطبيعيّة والكونيّة.

وتصل الحضارة الإسلاميّة إلى حقبة السقوط، عندما تمكّنت من أوصالها العديد من عوامل الانكسارات والأمراض فانطبق عليها ما ينطبق على كافّة الحضارات الإنسانيّة من مراحل الخلل والتحلل ومن ثمّ السقوط.

هذه الحقبة الحديثة التي انزوت فيها شمس الحضارة الإسلاميّة ما تأثيرها على مسار الحضارة الإنسانيّة؟ وما الذي أصاب المجتمع الإنساني من جرّاء هذا السقوط؟ هل وجود الكيان الإسلاميّ وهو يمارس دوره في هداية الإنسانيّة، له تأثيره على إيجاد التوازن والتعاون الفعّال بين الإسلام والغرب في سبيل التفاعل الحضاريّ القائم على احترام وتقدير خصوصيّات الشعوب والمجتمعات.

ويبدأ المؤلّف مؤلّفه، حيث يرسم صورة صغيرة سريعة - ولكنَّها واضحة - لهذا العالم قبل أن تُشرق عليه أنوار الإسلام الأولى، يرسم الصورة لهذا العالم شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، من الهند والصين إلى فارس والروم، صورة المجتمع وصورة الضمير في هذه الدنيا العريضة، في الجماعات التي تظلّها الديانات الوثنيّة كالهندوكيّة والبوذيّة والزرادشتيّة وما إليها.

إنّه يصف العالم تسيطر عليه روح الجاهليّة، ويتعفّن ضميره، وتأسن روحه، وتحتلّ فيه القيم والمقاييس، ويسوده الظُلم والعبوديّة، وتجتاحه موجة من الترف الفاجر والحرمان الناعس، وتغشاه غاشية من الكُفر والضلال والظلام، على الرغم من الديانات السماويّة، التي كانت قد أدركها التحريف، وسرى فيها الضعف، وفقدت سيطرتها على النفوس، واستحالت جامدة لا حياة فيها ولا روح، وبخاصّة المسيحيّة.

فإذا فرغ المُؤلِّف من رسم صورة العالم بجاهليّته هذه، بدأ من دور الإسلام في حياة البشريّة.

ثمَّ تجيء الفترة التي فقد الإسلام فيها الزمام، بسبب انحطاط المسلمين، وتخلّيهم عن القيادة التي يفرضها عليهم هذا الدين، والوصاية التي يكلفهم بها على البشريّة، والتبعات التي يَنُوطها بهم في كلِّ اتّجاه.

وهنا يستعرض المؤلِّف أسباب هذا الانحطاط الروحيّة والماديّة، ويصف ما حلَّ بالمسلمين أنفسهم عندما تخلّوا عن مبادئ دينهم، ونكصوا عن تبعاتهم، وما نزل بالعالم كلّه من فقدان لهذه القيادة الراشدة.

ومن خلال هذا الاستعراض، يحسّ القارئ، بمدى الحاجة البشريّة المُلحّة إلى تغيير القيادة الإنسانيّة، وردّها إلى الهدى الذي انبثق ليخرج النّاس من الظلمات إلى النور.

كذلك يثور في نفس المسلم بصفة خاصّة روح الندم، على ما فرّط، وروح الاعتزاز بما وهب، وروح الاستشراف إلى الذي ضيّع.

ولعلَّه ممّا يُلفت النظر تعبير المؤلِّف دائمًا عن النكسة التي حاقت بالبشريّة كلّها منذ أن عجز المسلمون عن القيادة بكلمة الجاهليّة، ولقد درجنا على أن نتلقّف التاريخ من أيدي أوربا كما نتلقّف كلّ شيء آخر بأخطائه تلك.

ويبدأ الندوي مؤلَّفه بالإشارة إلى أنَّ انحطاط المسلمين وزوال دولتهم وركود ريحهم - وهم حَمَلة رسالة الأنبياء، وهم للعالم البشري كالعافية للجسم الإنسانيّ - انحطاط شعب أو عنصر أو قوميّة، فما أهون خَطْبه وما أخفَّ وقعه، ولكنَّه انحطاط رسالة هي للمجتمع البشري كالروح، وانهيار دعامة قام عليها نظام الدين والدنيا.

وما آلت إليه أوضاع العالم، وماذا صارت إليه الأمم بعد ما تولت وأسست دولة

واسعة على أنقاض الدولة الإسلاميّة؟ وما أثر هذا التحوّل العظيم في قيادة الأمم وزعامة العالم في الدين والأخلاق والسياسة والحياة العامّة، وفي مصير الإنسانيّة؟

ويعرض في بداية مؤلّفه بعد أن يطرح التساؤل السابق إلى نظرته في الأديان السابقة للإسلام، حيث يرى أنَّ الديانات العُظمى أصبحت فريسة العابثين والمتلاعبين، ولعبة المحرفين والمنافقين، حتّى فقدت روحها وشكلها، فلو بعث أصحابها الأوّلون لم يعرفوها، وأصبحت مهود الحضارة والثقافة والحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام، وعسف الحكّام، ولم تحمل للعالم رسالة ولا للأمم دعوة، وأفلست في معنويّاتها، ونضب معين حياتها، لا تملك مشرعًا صافيًا من الدين المنزّل، ولا نظامًا ثابتًا من الحكم البشري.

وفي إطار الحديث عن هذه الديانات بدأ التعرّض للمسيحيّة، وعرض أيضًا للحرب الأهليّة الدينيّة في الدول الروميّة، ثمّ عرض لمصر في عصر الإمبراطورية الرُّوميّة من الناحيتين الدينيّة والاقتصاديّة، حيث اجتمع لمصر من الاضطهاد الديني، والاستبداد السياسي والاستغلال الاقتصادي ما شغلها بنفسها، وكدّر عليها صفو حياتها، وألهاها عن كُلِّ مكرمة.

وتحدّث عن ديانة الحبشة التي خلعت على نفسها لِباسًا من علمٍ ومصطلحات نصرانيّة.

ثمَّ المزج بين النصرانيَّة الوليدة والوثنيَّة الشائبة، عند الأمم الأوربيّة الشماليَّة الغربيَّة، ولم تكن رسالة في الدين.

ثمّ يعرض لليهوديَّة، وانتهى في رصده لتاريخهم إلى ما كانوا عليه في القرنين السادس والسابع من تدهور خُلقيّ، وانحطاط نفسيّ، وفساد اجتماعيّ، ولذلك عزلوا بذلك عن إمامة الأمم وقيادة العالم.

ثمّ تحدّث - في حديثه عن النصرانيّة - عن المُشكلاتِ والصراعاتِ التي

حدثت بينهم وبين اليهود.

وعرض الندوي للتعدد الديني في إيران، ولم يغفل أنَّ بلاد فارس كانت الحقل القديم لنشاط كبار الهدَّامين الذين عرفهم العالم.

وتحدّث عن تقديسهم لملوكهم (الأكاسرة)، حيث يدَّعون أنَّه يجري في عروقهم دم إلهيّ، وكان الفرس ينظرون إليهم كآلهة.

وأبرز التفاوت الصارخ بين الطبقات عندهم وتأثيرها في سلوكهم وحياتهم، ومن ثمّ أصبح المجوس أو الفرس لا فرق بينهم وبين اللادينيين والإباحيين في الأخلاق والأعمال.

وتحدّث الندوي عن ديانات الصين مثل لاوتسو، وديانة كونفوشيوس ثُمَّ البوذيّة، وعن الهند من النواحي الدينيّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة، وبين ما عندهم من وثنيّة مُتطرّفة وشهوة جنسيّة جامحة، ونظام الطبقات الجائر الذي تميَّزت فيه طبقة البراهمة على الطبقات الأخرى، وتحدَّث عن طبقة المنبوذين أو الأشقياء، حيث تمَّ مُعاملتهم بصورة أحطّ من البهائم وأذلّ من الكلاب، واحتقارهم المرأة.

وأصبحت هذه البلاد مسرحًا للجهل الفاضح والوثنيّة الوضيعة والقسوة الهمجيَّة والجور الاجتماعيّ الفاسد.

وأعقب ذلك الحديث عن العرب وعصر الجاهليّة، ولم يقف عند الوثنيّة والتعددية الدينية، ولكنّه أشار إلى تميّز العرب في هذا العصر بأخلاق ومواهب تفرّدوا بها، كالفصاحة وقوّة البيان وحبّ الحريّة، والأنفة والفروسيّة والحماسة وغيرها.

وشرح لوثنيَّة الجاهليَّة وأصنام العرب والآلهة عندهم.

ثمّ عرض للوجود اليهوديّ والنصرانيّ في بلاد العرب، وتحدَّث عن المرأة في المُجتمع الجاهليّ، والعصبيَّة القبليَّة والدمويَّة في العرب.

**كيف واجه النبي ﷺ الواقع الجاهليّ:**

بُعِثَ الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام والعالم مُصاب بزلزالٍ شديد هزّه هزًّا عنيفًا، ونظر إلى العالم بعين الأنبياء فرأى إنسانًا قد هانت عليه إنسانيّته.

رأى معاقرة الخمر إلى حد الإدمان، والخلاعة والفجور إلى حدِّ الاستهتار، وتَعاطِي الربا إلى حدِّ الاغتصاب واستلاب الأموال، ورأى الطمع وشهوة المال إلى حدِّ الجشع والنهم، ورأى القسوة والظُلم إلى حدِّ الوأد وقتل الأولاد.

رأى أحبارًا ورُهبانًا أصبحوا أربابًا من دون الله، يأكلون أموال النَّاس بالباطل، ويصدّون عن سبيل الله، ورأى الأمم قطعانًا من الغنم ليس لها راع، والسياسة كجمل هائج حبله على غاربه.

**صور من فساد الجاهليّة:**

رصد المؤلّف كافّة صور الحياة الفاسدة التي تسترعي اهتمام المُصلح وتشغل باله، فلو كان رجل من عامَّة رجال الإصلاح لتوفّر على إصلاح كل ناحية من نواحيها، وكل داء من أدواء المُجتمع الإنسانيّ، وكل عيب من عيوب الجيل الحاضر يتطلّب إصلاحه، حياة كاملة، وقد يستغرق أعمار طائفة من المُصلحين ولا يزول.

ولم يكن الرسول رجلًا إقليميًا أو زعيمًا وطنيًّا، وكان مجال العمل في بلاد العرب فسيحًا إذ كان الرسول ﷺ، رجلًا إقليميًا، وسار في قومه سيرة القادة السياسيين والزعماء الوطنيين، كان له أن يعقد للأمّة العربيّة لواء تنضمّ إليه قريش والقبائل العربيّة، ويُكَوِّن إمارة عربيّة قويّة موحّدة يكون رئيسها.

ولم يبعث عليه الصلاة والسلام لينسخ باطلًا بباطل، ويبدّل عُدوانًا بعدوان، ويحرّم شيئًا في مكان ويحلّه في مكان آخر، ويبدلّ أثرة أمّه بأثرة أمّة أخرى، لم يبعث زعيمًا وطنيًّا أو قائدًا سياسيًّا، وإنّما أرسل إلى النَّاس كافَّة بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا مُنيرًا، إنَّما أُرسل ليُخرج الناس جميعًا من عبادة العباد إلى عبادة الله

وحده، ويخرج الناس جميعًا من ضيق الدنيا إلى سعة الدُنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحلّ لهم الطيّبات، ويحرّم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

**ثورة الجاهليّة بعد سماع نبأ الرسالة:**

ويرى المؤلّف أنَّ القرآن الكريم قد أشار إلى هذه المسألة في قوله تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦].

وثبت الرسول ﷺ على دعوته ثبوتًا كثبوت الراسيات، لا يُثنيه أذى، ولا يلويه كيد، ولا يلتفت إلى إغراء، يقول لعمّه: «يا عمّ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتّى يُظهره الله أو أهلك دونه ما تركته».

لقد ثبت المسلمون الأولون على البلاء والمحن، فقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣]، وما قد زادهم تحدّي قريش من البلاء والاضطهاد في الدين إلاّ متانة في عقيدتهم وثباتًا على رسالتهم.

هذا والرسول عليه الصلاة والسلام يغذّي أرواحهم بالقرآن، ويربّي نفوسهم بالإيمان، ويخضعهم أمام ربّ العالمين خمس مرّات في اليوم عن طهارة بدن وخشوع قلب، وخضوع جسم، وحضور عقل، فيزدادون كلّ يوم سمّو روح ونقاء قلب ونظافة خُلق وتحرير من سلطان الماديّات ومقاومة للشهوات وتقرّبٍ إلى الحقّ سبحانه، ويأخذهم بالصبر على الأذى والصفح الجميل وقهر النفس.

ويعرّج بنا الندوي إلى مرحلة تأسيس دولة المدينة، حيث ارتبطت هذه التجربة بآصرة العقيدة بين الأنصار والمُهاجرين، وزالت كافّة الفروق بين الجميع في سبيل تثبيت دعائم الدولة الإسلاميّة الوليدة.

وكانت لحظات حاسمة في تاريخ المجتمعات والحضارات، حيث حدث هذا الانقلاب الذي أحدثته الدعوة الجديدة في نفوس أهل الجزيرة من الصحابة الكرام والذين التفّوا حول الرسول الكريم، حيث حققوا هذا الحدث الفريد في تاريخ الإنسانيّة.

**أوضاع المجتمعات الأخرى**:

ويرصد لنا المؤلّف الأوضاع في بلاد متزامنة مع هذا الحدث، فتحدث عن تعددية ووثنيّة المُجتمع اليوناني، حيث انعدمت العناية الإلهيّة عند اليونان.

ثمّ يتحدّث الندوي عن بعض الأخلاقيّات والقيم التي أحدثتها الرسالة الإسلاميّة كتربية النفس والضمير وخشية الله ﷻ، والثبات أمام المطامع والشهوات، والأنفة وعزّة النفس، والاستهانة بزخرف الدنيا والمظاهر الجوفاء، والشجاعة النادرة والاستهانة بالحياة.

وفي إطار المُجتمع الإسلاميّ، حارب الإسلام العصبيّة بكافّة أشكالها، حيث اعتبرها من بقايا الجاهليّة، وبيّن الإسلام حدود المسئوليّة في الفرد والأسرة والدولة، وعلاقة الرجل بالمرأة، وأصبح المسلمون أعوانًا على الحقّ، وأمرهم شورى بينهم، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وانتشرت فضيلة الحبّ في الله وفي رسوله، وضرب المؤلّف العديد من المواقف التي تُبرز هذا الحبّ في إطار المجتمع الوليد.

وبهذا الإيمان العميق والتوجيهات النبويّة الكريمة، وبفضل القرآن المُعجز الذي لا تنقضي عجائبه، بعث رسول الله ﷺ في الإنسانيّة المُحتضرة حياة جديدة.

ثمّ لا يلبث العالم المتمدّن أن يرى من هؤلاء ودعوتهم ورسالتهم، كتلة لم يشاهد التاريخ البشريّ مثلها في التوازن والعطاء الإنسانيّ، كتلة هي في غنى عن العالم، وليس العالم في غنى عنها، وضعت مدنيّتها وأسست حكومتها.

**نظام الدولة الوليدة:**

ظهر المسلمون وتزعّموا العالم، وعزلوا الأمم المريضة من زعامة الإنسانيّة، التي استغلّتها وأساءت عملها، وساروا بالإنسانيّة سيرًا حثيثًا مُتّزنًا عادلًا، وقد توفّرت فيهم الصفات التي تؤهلهم لقيادة الأمم، وتضمن سعادتها وفلاحها في ظلّهم وتحت قيادتهم.

- لقد كانوا أصحاب كتاب منزّل وشريعة إلهيّة، لا يشرّعون من عند أنفسهم.

- ولم يتولّوا القيادة والحكم بغير تربية خلقيّة وتزكية نفس، بخلاف غالب الأمم والأفراد، ورجال الحكومة في الماضي والحاضر، ونصب أعينهم قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

- لم يخرجوا إلى الدنيا ليؤسسوا إمبراطوريّة، ولكن ليقيموا حضارة ترتكز على العدل والسلام واحترام الإنسانيّة، أو كما قال ربعي بن عامر: «الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، وفي هذا السياق يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات :١٣].

في ظلّ هؤلاء وتحت حكمهم استطاعت الأمم والشعوب - حتّى المُضطهدة منها - أن تنال نصيبها من الدين والعلم والتهذيب.

- موازنة الإسلام بين الجوانب الروحيّة والماديّة.

وقد امتاز أصحاب النبيّ عليه الصلاة والسلام، بأنّهم كانوا جامعين للأخلاق المُنبثقة عن العقيدة، وجمعوا بين القوّة والسياسة، وكانت تتمثّل فيهم الإنسانيّة بجميع

نواحيها، وبذلك ساروا بالإنسانيّة إلى غايتها المُثلى الروحيّة والخُلقيّة والماديّة.

ووقف بنا المؤلّف عند الخلافة الراشدة وحقيقتها، ودورها العظيم في الحفاظ على الكيان السياسي للدولة الإسلاميّة، حيث بيّن ما فعلوه في سبيل التأسيس من ناحية والخروج إلى العالمين من ناحية أخرى.

وحول مبدأ الاستخلاف حثّ الإسلام ألاّ نسرف في تقدير الحياة الأرضيّة، وألاّ نغالي في قيمتها مُغالاة الحضارة الغربيّة الحاضرة، والحياة الإنسانيّة لها قيمتها الكبرى، ولكنّها واسطة وآلة لحياة أخرى خالدة، وهذا يعني ببساطة أنَّ الإسلام يحثّ على حياة تتأسس على ماديّة مرتبطة بالجوانب الروحيّة، وروحيّة تؤسس مجتمع لا يغفل عمارة الكون والحياة.

**وحول العطاء الإسلاميّ للبشريّة**:

- أصبح النّاس لا يجدون عائقًا عن الإسلام، يواجهون صعوبة وعنتًا في سبيل قبول الإسلام، بأرواحهم وأنفسهم، ونفسًا مطمئنّة واثقة في الحياة بعد الموت.

- صارت طباع النّاس بعقولهم تتأثّر بالإسلام وبتوجيهاته.

- الدور الحيوي الذي قدّمه الإسلام للحضارة الأوربيّة في مطالع عصر النهضة، حيث كانت البواكير الأولى لعصر الإحياء في الغرب، بفضل الإضافات العظيمة التي قدّمها علماء الإسلام في كافّة ميادين العلم والمعرفة.

وفي هذا الصدد قدّم لعديد من الشهادات لبعض العلماء والمُصلحين للإشادة بهذا الدين، وما أحدثه من تغيير وتقدّم على مستوى الحضارات.

ثمّ تحدّث عن حقيقة الجهاد وأصوله وضوابطه والغرض من تشريعه للدفاع عن الكيان السياسي للدولة الإسلاميّة، ثمّ تحدّث عن مبدأ الاجتهاد الذي يبرز قدرة الشريعة الإسلاميّة كتابًا وسنّة.

**ثمَّ عدد بعض صور التخلّي عن المبادئ الإسلاميَّة، مثل:**

- فصل الدين عن السياسة، حيث يزال هذا الجانب من أخطر التحديات التي واجهت الأمّة الإسلاميّة وتواجهها حتّى الآن.

- انغماس الحكّام في حياة الترف والشهوات، حيث كان ذلك السلوك مقدّمة لتحلل الكيان الحضاري الإسلامي.

وقدّم هؤلاء صورة سيئة لحقيقة الإسلام وقيمه التي قدّمت منظورًا مُتكاملًا لحياة الحاكم وللأصول السياسيّة الإسلاميّة بين الحاكم والرعيّة، والتي تنكّب عنها هؤلاء، فكان الحصاد المرير الذي نحياه الآن.

- انتشار الضلالات والبدع في العالم الإسلاميّ، مثال الطرق الصُوفيّة، وتقليد الغرب وانتشار الأفكار العلمانيّة والتغريبية.

وتحدّث المؤلِّف عن الدور العظيم الذي قام به القائد المجاهد الناصر «صلاح الدين الأيوبي» بعد أن سرت في أوصال الأُمّة روح الجهاد من جديد بعد أن دحر الصليبيين وانتصر عليهم.

- ثمّ فقر القيادة بعد صلاح الدين، تحوّل مسار الكيان الإسلاميّ إلى دويلات تتصارع فيما بينها، ومن ثمَّ انهار صرح القوّة الإسلاميّة، وجاء التتار والمغول، وما أحدثوه من تمزيق الأمّة وتفكيك أوصالها.

**دور الخلافة العثمانيّة:**

في ذلك الحين ظهر العثمانيّون على مسرح التاريخ وفتح محمد الثاني بن مراد، وكانت القسطنطينيّة العظمى عاصمة الدول البيزنطية المنيعة سنة ٨٥٧هـ (١٤٥٣م) فتجدد رجاء الإسلام وانبعث الأمل في نفوس المسلمين، وكان الترك على رأسهم آل عثمان موضعًا للثقة في قيادة الأمم الإسلاميّة وفي استرداد قوّة المسلمين ومكانتهم في العالم، وكان فتحهم للقسطنطينيّة التي استعصت على

المسلمين ثمانية قرون دليلًا على كفاءتهم وقوّتهم، وبلوغهم درجة الاجتهاد في صناعة الحرب، وحسن قيادتهم العسكريّة وتفوّقهم على الأمم المعاصرة في آلات الحرب، واستخدامهم لمهمّتهم قوّة العلم والعمل، وكلّ ذلك ما لا غنى للأمّة عنه.

وقد تميّز العثمانيّون بالرغبة في النهوض والتحمّس والطموح، اتّصفوا بروح الجهاد، والتمتع بالقوة الحربيّة، التي يقدرون بها، على بسط سيطرة الإسلام الماديّة والروحيّة، ويرد ون بها غاشية الأمم المناوئة وعاديتها، ويتبوءون بها قيادة العالم.

ولكن يرصد بعض الجوانب الموضوعيّة، حيث يرى انحطاط العثمانيّين في الأخلاق وجمودهم في العلم وصناعة الحرب.

كما يرصد للجمود العلمي، حيث لم يعنوا باكتساب العلوم الحديثة، بل منعوا الأفكار الجديدة عن أن تدخل في منطقهم، وقد تغلّب الجمود على نظامهم التعليمي.

ولم يكن الجمود العلمي والكلال الفكري مُقتصرين على البلاد العثمانية وأوساطها العلميّة والدينية فحسب، بل كان العالم الإسلاميّ من شرقه إلى غربه مُصابًا بالجدب العلميّ، وشبه الشلل الفكريّ، وأخذه الإعياء والفتور واستولى عليه النعاس.

ويرصد لنهضة أوربا وسيرها الحثيث في علوم الطبيعيّات، ويرصد للعديد من العلماء في الميادين العلميّة، ثمّ يتحدّث عن تخلّف المسلمين في مرافق الحياة المدنيّة ووسائلها العلميّة، ولم يكن انحطاط المسلمين في العلوم النظريّة والحكميّة والمدنيّة فحسب، بل كان هذا الانحطاط عامًّا شاملًا، حتّى تخلّفوا عن أوربا في صناعة الحرب.

ويرصد المؤلِّف نقطة هامَّة نُسجّلها معًا، وهي أنَّ الخِلافة العُثمانيّة قد تركت فراغًا كبيرًا في واقع الأمّة الإسلاميّة، حيث كانت حصنًا منيعًا للإسلام.

**طبيعة الحضارة الغربيّة وتاريخها**:

يعرض الندوي للحضارة الغربيّة من حيث طبيعتها ووضعها وروحها وفلسفة حياة هذه الأمم وكيف نشأت.

ويبرز الارتباط التاريخي والفكري بين الغرب المعاصر وجذوره عند اليونان، حيث خلفت الحضارة اليونانية حضارة الغرب الحديثة، في الجوانب السياسيّة والدينيّة والفكرية والاجتماعيّة.

وفي هذا الصدد يعرض لخصائص الحضارة اليونانيّة وخاصّة في الإطار الفكري والفلسفي، حيث رصد لبعض السمات التي تميّز اليونان، فيرى أنّها تكمن في:

١- الإيمان بالمحسوس.

٢- الفوضى الدينية والتعددية الوثنيَّة.

٣- عبادة الحياة الدنيا.

٤- النزعة الوطنيّة.

ويختزل هذه السمات في صفة «الماديّة» التي وسمت هذه الحضارة. والحقيقة أنّ هناك خطأ منهجيًّا ينبغي أن نتداركه، أنّ قياس الماضي اليونانيّ على الواقع الحديث لا يجوز من الناحية الموضوعيّة، وخاصّة في المجال الديني.

ثمّ يعرض لخصائص الحضارة الرومانيّة بعد أن انتقل زمامها إليهم، حيث أقرّ المؤلّف بعدم اختلافهم عن اليونان، ثمّ وقف عند الانحطاط الخُلقيّ لدى الرومان، ثمّ عرض لاعتناق الرومان للمسيحيّة، حيث يردد ما قاله أحد المؤرّخين: «دخلت الوثنيّة والشرك في النصرانيَّة بتأثير المُنافقين الذين تقلّدوا وظائف خطيرة، ومناصب عالية من الدولة الروميّة بتظاهرهم بالنصرانيّة، ولم يكونوا يتخلقون بأمر الدين، وكذلك كان قسطنطين، فقد قضى عمره في الظلم والفجور، ولم يتقيّد بأوامر

الكنيسة الدينية إلاّ قليلًا في آخر عمره (٣٣٧م).

ثـمَّ يتحـدّث عـن حركـة الرهبنـة والرهبـان في العـصور الوسـطى الأوربيّـة، وسيطرة رجال الكنيسة على مسار الحياة الغربيّة لأكثر من ألف عـام، وكانـت تجربـة الغرب مع الدين تجربة لا يمكن للإنسان أن يرقى من خلالها.

ولم تـستطع روحانيَّـة الرهبنـة أن تقـضي عـلى ماديّـة الغـرب، وأبـرز اضـطهاد الكنيسة للعلم، والصراع الذي احتدم بين العلم والدين. ورصد للمظاهر الماديّة في الغرب وأهمّ رموزها الذين نظروا للفكر الماديّ، وشبه المؤلّف التطابق الواضح بين ماديّـة الغـرب واليونـان. وأصـبحت الماديّـة شـعار الحـضارة الغربيّـة، ولم تـستثمر انتصاراتها في الميادين العلميّة من أجل إسعاد البشرية بل في شقائها.

ثمّ يعرض لنموذج من أهمِّ النماذج الماديَّة الغربيَّة، وهي الفلسفة الماركسيَّة التي اعتبرت الجانب الاقتصاديّ هو العامل الجوهريّ في حركـة التـاريخ، عـبر شـعارات الماديّة والصراع الطبقي بين الطبقتين الرأسماليّة وطبقة العمّال والبؤساء، مـع التأكيـد على غياب العامل الديني والقيم الأخلاقيّة في هذه الفلسفة، حيث انزوت بعد ذلك في مهاوي التحلل والسقوط في إطار منظومة المذاهب الغربيَّة.

ثمّ عرض لفكرة القوميّة في الإطار الغربيّ، بعد انكسار الكنيسة اللاتينيّة حيـث تسبب ذلك في ظهـور العـصبيّة والقوميّـة في الإطـار الغـربي، وأبـرز انتقـال الأفكـار القوميّة إلى العالم الإسلاميّ، وخاصّة في بلاد فارس وتركيا، ثمّ ظهور فكرة القوميَّـة العربيَّة وفشلها حتّى الآن في قيادة الأمَّة في غياب الإسلام.

وأبـرز مفاسـد الحكومـات الأوربيَّـة، عنـدما دشـن الغـرب ريـاح الاسـتعمار للشعوب الضعيفة وحصاد هذا الصراع العنيف.

وأبرز المُؤلِّف بعد ذلك الانتصارات الأوربيَّة في الميادين التقنيَّة والعلميَّة حيـث

استطاعت في غياب التنمية في الشُعوب المُستعْمَرة، أن تخضع هذه الشعوب لإرادتها وتبعيّتها.

وأشار المُؤلِّف إلى الفارق بين استخدام التقنية في الغرب، وفي المنظور الإسلاميّ، حيث إنَّ الإسلام يضع وظيفة أخلاقيَّة وقيميَّة لاستخدام التقنيّة، وهو ما يغيب تمامًا عن المنظر الغربي الذي استخدمها في البطش والاستعمار، وذلك لعدم تعادل القوّة والأخلاق في الغرب.

ثمَّ لخّص ما وصل إليه الغرب في عهد الاستعمار الأوربيّ، مثل بُطلان الحاسَّة الدينيَّة التي كانت من أهمِّ الأسباب في أزمة الحضارة الغربيّة التي نظرت إلى حركة الحياة من خلال رؤية أحاديّة الجانب، وهي الجوانب، والحضارة من حيث العوامل الماديّة والروحيّة تتصل ولا تنفصل، ولا يمكن تصوّر الحياة البشريّة في غياب العامل الديني الذي شكّل جوهر الحضارات على مدار التاريخ.

وفي الجزء الأخير من الكتاب يعرض المُؤلِّف للدور المُنتظر للإسلام، كبديل عن حضارة الصراع.

فعرض لمحاولات النهضة في العالم الإسلاميّ، في الوقت الذي تسيطر رياح الجاهليّة على الحياة الحديثة - كما يرى المؤلّف - ثُمَّ استيلاء الفلسفة الأوربيَّة على العالم، ولكنَّه تحدَّث في هذا السياق على تبعيَّة العالم الإسلاميّ للغرب في مُعظم المجالات، ثُمَّ يرى أنَّ الإسلام بما يحمل من قيم الحقِّ والعدل والمساواة هو الملاذ الأخير للإنسانيَّة، ثمّ بيَّن قيمة الرسالة الإسلاميَّة للبشريَّة.

واختتم كتابه بأهميَّة العنصر العربيّ في حمل هذه الرسالة إلى البشريَّة، وهو يُؤَاخَذ على ذلك حيث إنَّ القيم الإسلاميَّة لا يتمكّن من حملها وتبليغها إلى الآخر إلاّ من يملك المقوّمات الحقيقيّة التي تمكّنه من قيادة الأمّة ومواجهة كافّة

التحديات، وليست المسألة خاصَّة بالعالم العربيّ كما يرى المُؤلِّف.

والكتاب جدير بالقراءة، حيث يمثّل - رغم الفترة الزمنيّة التي أُلّف فيها - إضافة حقيقية إلى المكتبة الإسلاميّة الواعية والمسئوليّة، في وقت أحوج ما تكون فيه الأمّة من العودة إلى حمل مشعل الحضارة من جديد.

*****

obeikan.com